كتب بالفرنسية

في كواليس الشرق الأدنى: مذكرات صحافي دبلوماسي (١٩٥٢ ـ ٢٠١٢)

Dans les coulisses du Proche-Orient: Memoires d'un journaliste diplomate (1952-2012)

Eric Rouleau

Paris: Maison Fayard, 2012. 433 pages.

إريك رولو اسم معروف في عالم السياسة والصحافة في أوساط المتابعين للشأن العربي والشرق الأوسطي. فهو عمل منذ أواسط خمسينيات القرن الماضي في صحيفة "لوموند" الفرنسية النافذة، ولم يلبث أن تولى مسؤولية منطقة الشرق الأوسط فيها. وكانت تغطياته الصحافية لمختلف أوضاع المنطقة العربية ومحيطها تلقى اهتماماً كبيراً ومتابعة في مناطق واسعة من العالم، وطبعاً في المنطقة العربية المعنية.

تحوّل رولو منذ أواسط الثمانينيات الماضية من العمل الصحافي الى الدور الدبلوماسي، حين عيّنه الرئيس الفرنسي الأسبق فرانسوا ميتران سفيراً لفرنسا في تونس أولاً، وهي العاصمة التي كانت قد تحولت إلى مقر موقت لجامعة الدول العربية بعد تجميد عضوية مصر في إثر الاتفاقية المصرية ـ الإسرائيلية في سنة ١٩٧٩، ثم إلى مقر للمركز القيادي الرئيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد خروج قيادات المنظمة من بيروت في سنة ١٩٨٢. وتولى بعد ذلك منصب السفير الفرنسي في تركيا، قبل أن يعود عند انتهاء مهمته الدبلوماسية إلى الكتابة والمتابعات الصحافية. وهو صاحب الحوار الشهير مع القائد الفلسطيني الراحل صلاح خلف (أبو إياد) الذي نُشر في كتاب صدر في أواخر سبعينيات القرن الماضي بعنوان: "فلسطيني بلا هوية"، وترجم إلى عدة لغات.

ومثلما يوضح كاتب المقدمة، الصحافي والكاتب ألان غريش، وكذلك الكاتب نفسه في الصفحات الأولى، فإن رولو هو من مواليد مصر في سنة ١٩٢٦، وسليل عائلة مصرية من الطائفة اليهودية، واسمه كان إيلي رفّول. وقد انتقل إلى فرنسا في كانون الأول / ديسمبر ١٩٥١، عندما خيّرت السلطات الملكية المصرية هذا الشاب المشارك في نشاطات الأوساط الطالبية والعمالية اليسارية بين دخول السجن ومغادرة البلد نهائياً.

وأحدث قيام الدولة

الصهيونية في فلسطين، والحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى في سنة ١٩٤٨، ومساعي الحركة الصهيونية للعمل على استمالة عناصر من الطوائف اليهودية في البلاد العربية إلى الهجرة إلى إسرائيل، أو العمل لحسابها في تلك البلاد، شرخاً بين هذه الطوائف وبقية مكونات المجتمعات العربية، كما أتاحت المجال أمام السلطات الحاكمة في بعض هذه البلاد لأن تخلط في قمعها للمعارضة اليسارية داخلها بين الخيارات السياسية والفكرية لأعضاء هذه المعارضة والهوية اليهودية للبعض منهم، وذلك في زمن أصبح فيه كل مواطن يهودي متهماً باحتمال الصلة بالحركة الصهيونية ودولتها الجديدة التي واجهت المحيط العربي عسكرياً في سنة ١٩٤٨، وصادرت أراضي الشعب الفلسطيني وحقوقه ووطنه.

وهكذا غادر الشاب إيلي رفول بلد نشأته (مصر) قبل استيلاء الضباط الأحرار على السلطة في صيف سنة ١٩٥٢ بأشهر قليلة. وتابع الشاب المهاجر، من وطنه الجديد، فرنسا، أحداث مصر والمنطقة العربية والشرق الأوسط، في وكالة الصحافة الفرنسية أولاً، ثم في صحيفة "لوموند" التي لم يلبث مؤسسها ورئيس تحريرها الأول، أوبير بوف ميري، أن عرض عليه تولّي مسؤولية منطقة الشرقين الأدنى والأوسط في صحيفته التي كانت آنذاك قريبة من الأوساط الديغولية (نسبة الى قائد المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الألماني النازي والرئيس لاحقاً، شارل ديغول). واختار المهاجر الجديد اسماً جديداً له في كتاباته، هو إريك رولو، الذي سيصبح سريعاً اسماً معروفاً في سماء الصحافة العالمية المتابعة للشأن العربي والشرق الأوسطي، بما في ذلك طبعاً وبصورة خاصة، الصراع العربي ـ الإسرائيلي. ويقول رولو أنه استغرب بعض الشيء اختيار مؤسس "لوموند" صحافياً من أصل يهودي كي يغطي منطقة باتت أغلبيتها لا تسمح، بعد قيام الدولة الصهيونية، بمجيء مواطنين من الطوائف اليهودية إليها.

لكن المنعطف الكبير في مهنة الصحافي الصاعد ومصيره جاء في سنة ١٩٦٣ عندما وصلته دعوة من رئيس تحرير "الأهرام" آنذاك، محمد حسنين هيكل، عبر أحد معاونيه، وهو الصحافي لطفي الخولي، إلى زيارة مصر في صيف تلك السنة، وبمبادرة تبيّن لاحقاً أن الرئيس المصري جمال عبد الناصر لم يكن بعيداً عنها. وأصرّ الصحافي رولو، وفقاً لقواعد صحيفته المستقلة، على أن تكون تكاليف الرحلة والإقامة فيها على حساب الصحيفة الفرنسية، لا على حساب "الأهرام" أو الحكومة المصرية، وهما الجهتان الداعيتان، علماً بأن تلك الدعوة أتاحت له العودة إلى مناطق نشأته وشبابه المبكر، كما أتاحت له التعرف الى القيادات المصرية وبعض الشخصيات العربية المقيمة أو اللاجئة سياسياً إلى مصر في حينه، وتطوير شبكة علاقات ومعارف ستخدمه لاحقاً في رحلاته التالية التي شملت العديد من الدول العربية وغير العربية في المنطقة.

ويشير الكاتب إلى أن بين العوامل التي كانت وراء دعوة السلطات المصرية له، تغطياته الميدانية لأحداث الكونغو في مطلع الستينيات، حين استقل هذا البلد الإفريقي الكبير والغني بالموارد المنجمية عن الدولة المستعمرة بلجيكا، وواجه جملة من التدخلات الخارجية والصراعات الداخلية على النفوذ. وهي صراعات نجم عنها، فيما نجم، تصفية أحد أبرز شخصيات مرحلة الاستقلال في الكونغو وفي إفريقيا في تلك الحقبة، وهو أول رئيس حكومة للكونغو المستقلة، باتريس لومومبا، الذي تآمرت على الإطاحة به الدولة المستعمرة السابقة، بلجيكا، والدولَة الصاعدة عالمياً بعد الحرب العالمية الثانية والطامحة إلى وراثة نفوذ الدول الاستعمارية القديمة، الولايات المتحدة الأميركية. ويقول رولو في كتابه إن تغطياته لما جرى في الكونغو بدت للمسؤولين المصريين قريبة من مواقفهم التي كانت متعاطفة وداعمة لحركة الاستقلال الإفريقية.

إلاّ إن ثمة سبباً آخر، وفقاً للكاتب، كان على الأغلب وراء الدعوة المصرية إليه، وهو الرغبة لدى عبد الناصر في الانفتاح على فرنسا الديغولية بعد انتهاء حرب التحرير الجزائرية، وبدايات توجّه الرئيس الفرنسي الذي تولى السلطة في سنة ١٩٥٨، وأدى دوراً مهماً في إنهاء الحرب الاستعمارية في الجزائر، إلى إحداث شيء من التوازن في علاقات فرنسا الشرق الأوسطية. ومن المعروف أن سياسة فرنسا في الخمسينيات كانت منحازة إلى إسرائيل ومعادية لحركة التحرر العربية. وبما أن المناخ الشعبي العربي كان متعاطفاً على نطاق واسع مع الشعب الجزائري المناضل من أجل حريته واستقلاله، وهو تعاطف اتخذ من جانب النظام الناصري في مصر طابعاً إسنادياً عملياً، فإن ذلك فاقم من عداء فرنسا للمنطقة العربية، وفي المقابل، من عداء الرأي العام العربي لفرنسا وسياساتها الاستعمارية، وخصوصاً أن حالة العداء هذه وصلت إلى حد مجابهة عسكرية دموية، عندما رتّب حكام فرنسا في أواخر سنة ١٩٥٦ مع المسؤولين في بريطانيا وإسرائيل لشنّ عملية حربية كبيرة ضد مصر الناصرية التي كانت قد ارتكبت "جريمة" استعادة السيادة المصرية على شركة قناة السويس التي كانت حتى ذلك الحين تحت السيطرة البريطانية ـ الفرنسية. وهذه الحرب هي التي عززت شعبية عبد الناصر الداخلية والعربية، وزادت رصيده في "العالم الثالث"، وأفشلت بالتالي أحد الأهداف الرئيسية للحرب الثلاثية، وهو تحديداً الإطاحة بعبد الناصر ونظامه في مصر.

ويتحدث رولو عن لقائه الأول بعبد الناصر، وعن المقابلة التي أجراها معه والتي لقيت اهتماماً عالمياً واسعاً بعد نشرها، ويشير إلى أنه كان قد اشترط في حديثه التمهيدي مع مضيفه محمد حسنين هيكل قبل المقابلة أن يكون لديه الحرية لطرح أي أسئلة من دون قيود، بما في ذلك عن المعتقلين السياسيين في مصر. وبعد أن وجد استجابة من طرف الجانب المصري، وقام بطرح السؤال على الرئيس المصري، فاجأه الأخير

بإبلاغه نيته الإفراج عن المعتقلين السياسيين قبل نهاية العام. ومعروف أن المعتقلين كانوا آنذاك في معظمهم من اليساريين، شيوعيين وماركسيين خاصة، ومن الإخوان المسلمين. وبسبب بعض القيود التي وُضعت على المعتقلين لإطلاقهم، والتي رفضها بعضهم، تأخر الإفراج عن المعتقلين اليساريين حتى عشية وصول الزعيم السوفياتي نيكيتا خروتشوف إلى ميناء الإسكندرية في أيار/ مايو ١٩٦٤ للمشاركة في افتتاح السدّ العالي في أسوان، والذي تم بناؤه بمساعدة مالية وفنية من الاتحاد السوفياتي، وهي المساعدة التي جاءت تحديداً بعد رفض الولايات المتحدة والبنك الدولي تقديم القروض لتمويل بنائه، الأمر الذي دفع عبد الناصر في حينه إلى اتخاذ قرار تأميم قناة السويس، والذي أعلنه في خطابه الشهير في الإسكندرية في ٢٦ / ٧ / ١٩٥٦، وذلك كي توفر له عائدات الملاحة في القناة بعض المداخيل التي تساهم في تمويل بناء السدّ.

ويشير رولو الى أنه لمس في أثناء حديثه مع عبد الناصر إعجاباً من جانبه بالرئيس الفرنسي شارل ديغول، وهو إعجاب تبيّن لديه لاحقاً أنه متبادل، أي أن الرئيس الفرنسي كان يكنّ مشاعر مشابهة للرئيس المصري. ومعروف أن العلاقات الفرنسية ـ العربية التي كانت سيئة في الخمسينيات، تحولت شيئاً فشيئاً إلى علاقات حسنة منذ ما بعد استقلال الجزائر، إذ بدأت العلاقة الخاصة الفرنسية ـ الإسرائيلية تفتر شيئاً فشيئاً، وبلغ الفتور ذروته بقرار ديغول حظر الأسلحة الفرنسية عن أطراف الصراع في إبان الحرب الإسرائيلية على الدول العربية المحيطة في ٥ حزيران / يونيو ١٩٦٧، وهو حظر كانت إسرائيل عملياً، هي المستهدف الرئيسي منه، ذلك بأن ديغول كان قد حذّر الإسرائيليين سلفاً من أنه سيدين الطرف الذي يبدأ الحرب، وهو ما فعله بعد الحرب. وشهدت مرحلة ما بعد هذه الحرب تحسناً مطرداً في علاقات فرنسا بالعالم العربي في مختلف المجالات، بما في ذلك المجال الاقتصادي.

ويروي الكاتب أن ديغول قال لمسؤولي ألمانيا الغربية بعد شهر من حرب ١٩٦٧ إن هزيمة مصر الناصرية تخدم بالدرجة الأولى مصالح الولايات المتحدة التي اتهمها ديغول أمامهم بتطلعات للهيمنة على الشرق الأوسط (ص ١٦٠). ومعروف أن ديغول كان، منذ توليه الرئاسة في سنة ١٩٥٨، يسعى لرسم سياسة استقلالية نسبية لبلده تجاه الولايات المتحدة، الأمر الذي دفعه إلى إخراج فرنسا من النطاق العسكري لحلف شمال الأطلسي، وكذلك للاعتراف المبكر بجمهورية الصين الشعبية، في وقت كانت الولايات المتحدة تصرّ على اعتبار نظام تشانغ كاي تشيك في جزيرة تايوان ممثلاً للصين كلها، ويحتل مقعدها الدائم في مجلس الأمن الدولي.

ويروي رولو أجواء الأيام التي سبقت حرب ١٩٦٧ حين كان هو نفسه في القاهرة، وكاد يتشكل لديه الانطباع، بعد عدة أيام من الانتظار، أن الحرب لن تقع

أو أنها مؤجلة. وينقل عن لقاء له مع تشارلز يوست، مبعوث الرئيس الأميركي جونسون لمعالجة الأزمة الناجمة عن إغلاق مصر مضائق تيران أمام السفن الإسرائيلية في أيار / مايو من السنة ذاتها، قوله إن عبد الناصر قال لروبرت أندرسون، المبعوث الخاص للرئيس الأميركي، أنه يريد تفادي المواجهة المسلحة، وأنه يقترح إرسال نائبه زكريا محيي الدين إلى واشنطن في ٧ حزيران/ يونيو، لإيجاد صيغة عملية للتعايش، مشيراً إلى إمكان التساهل مع مرور بضائع إسرائيلية غير استراتيجية عبر المضائق (ص ١٤٢ و١٤٣). وينقل الكاتب أن جونسون طلب من عبد الناصر عدم المبادرة إلى شن الحرب، بينما أعطى الموافقة لإسرائيل على بدء الهجوم على مصر (ص ١٤٣).

وعلى قاعدة المعلومات المتوفرة حالياً، يتبين أن ضباط الجيش الإسرائيلي مارسوا ضغطاً مكثفاً على الحكومة الإسرائيلية من أجل القيام بالهجوم على مصر والمحيط العربي. وكان في مقدّم هؤلاء الضباط رئيس أركان الجيش في ذلك الحين، الجنرال يتسحاق رابين، ورئيس الأركان خلال حرب السويس في سنة ١٩٥٦، الجنرال موشيه دايان، والذي تم إدخاله إلى الحكومة في ١ حزيران/ يونيو ١٩٦٧ كوزير للدفاع بضغط من كبار ضباط الجيش. ويقول الكاتب إن الجنرال أريئيل شارون ذهب إلى حد مفاتحة يتسحاق رابين في أواخر أيار / مايو ١٩٦٧ بضرورة تنظيم انقلاب على الحكومة، وتأليف حكومة عسكرية بقيادة رابين نفسه (ص ١٦٢).

وينقل الكاتب عن الجنرال يتسحاق رابين، في أثناء مقابلة أجراها معه في شباط / فبراير ١٩٦٨، أي بعد أقل من عام على الحرب، قوله: "لا أعتقد أن عبد الناصر أراد الحرب. والفرقتان اللتان أرسلهما إلى سيناء في ١٩٦٧/٥/١٤ لم تكونا لتكفيا لبدء هجوم ضد إسرائيل. هو كان يعلم ذلك، ونحن نعلمه... هو كان يراوغ". استخدم الكاتب تعبير "bluff" الإنجليزي، والذي يجري استخدامه أحياناً بشيء من التصرف في اللغة العربية، فيقال إنه كان "يبلف" (ص ١٥٨). ويضيف الكاتب أن إسرائيل رفضت عرضاً مصرياً شبه رسمي قبل الحرب بسحب القوات المصرية التي أُدخلت إلى سيناء، وبإعادة فعلية للحركة في المضائق، في مقابل التزام إسرائيل بعدم مهاجمة سورية، لكن العسكريين في إسرائيل رفضوا العرض (ص ١٥٩).

وينقل الكاتب عن الرئيس المصري عبد الناصر في مقابلة أُخرى له معه في كانون الثاني / يناير ١٩٧٠ أنه كان مقتنعاً بأن "الأميركيين يسعون لقلب النظام المصري منذ سنة ١٩٦٥"، وأن هدفهم الاستراتيجي هو الإطاحة بكل الأنظمة التقدمية العربية، وخصوصاً بعد "ثورتَي" السودان وليبيا في السنة السابقة، أي سنة ١٩٦٩ (ص ٢٧٠).

وينقل الكاتب أيضاً عن السفير الأميركي الأسبق ريتشارد باركر أن رابين الذي ترك الجيش بعد الحرب بأشهر قليلة وعُيّن سفيراً لإسرائيل في واشنطن،

بعث في أيلول / سبتمبر ١٩٦٩ إلى رئيسة الحكومة الإسرائيلية آنذاك، غولدا مئير، برسالة داخلية يبلغها فيها أن الولايات المتحدة تدعم العمليات الإسرائيلية ضد مصر في أثناء حرب الاستنزاف، وأنها، على غرار إسرائيل، تحبّذ سقوط النظام الناصري (ص ٢٧٢). كما ينسب إلى رابين قوله بعد حرب ١٩٦٧ بفترة وجيزة: "إن الشعوب المهزومة لا خيار لها إلاّ أن تطيع" (ص ٢٢٢)، وهو ما يعزز الصورة "الصقرية" التي كان يتسم بها رابين في تلك الفترة. وينقل الكاتب أيضاً عن شمعون بيرس، المقرّب آنذاك من رئيس الحكومة الأول لإسرائيل دافيد بن غوريون، قوله للكاتب إن الفروقات بين "الحمائم" و"الصقور" لم تكن أساسية (ص ٢١٩)، في حين كان الوزير النافذ يغآل ألون يطلق على "الحمائم" تعبير "العصافير الغبية".

ويقول الكاتب أنه، بعد أن عاد إلى باريس في إثر حضوره القمة العربية في الخرطوم، والتي عُقدت بين ٢٨ آب / أغسطس و٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٧، اتصل به سفير الأردن في باريس، عبد الله صلاح، وطلب منه إيصال رسالة إلى سفارة إسرائيل بأن الأردن مستعد للسلام مع إسرائيل إذا ما أعيدت الضفة الغربية والقدس الشرقية (ص ١٨٧)، مع إمكان القبول ببعض التعديلات على الحدود، لكن من دون تنازل عن الأماكن الإسلامية في القدس. ويروي الكاتب أن الردّ الإسرائيلي جاء بعد أيام، وأكد أن "لا تخلي عن القدس التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من عاصمة الدولة اليهودية." وينقل الكاتب قبل ذلك عن عبد الناصر قوله في أثناء قمة الخرطوم إن الوقت يعمل لمصلحة إسرائيل، وإن "علينا العمل بسرعة للحؤول على الأقل دون الاستيطان في الضفة الغربية والقدس الشرقية" (ص ١٨٦)، الأمر الذي يفسر تشجيعه التحرك الأردني في هذا الاتجاه في ذلك الحين.

والكاتب، الذي لا يخفي إعجابه بالرئيس عبد الناصر، مع أنه في مقابلات أجرتها معه شبكة "روسيا اليوم" التلفزيونية لم يخف انتقاداته لـ "أخطاء" الرئيس المصري الأول، يتناول بعد ذلك شخصية خلفه أنور السادات بأوصاف هي في مجملها سلبية. ففي حديثه عن تاريخ السادات في أربعينيات القرن الماضي قبل حركة تموز / يوليو ١٩٥٢، يشير إلى علاقة له بالأجهزة الألمانية النازية في إبان الحرب العالمية الثانية، وكذلك بـ "الحرس الحديدي" التابع للملك فاروق. كما يشير إلى أن السادات، بعد وصول الضباط الأحرار إلى السلطة في مصر، كان يتلقى لعدة أعوام مبالغ منتظمة من مسؤول المخابرات السعودية (ص ٣٢٤).

ويتناول الكاتب التحول الذي طرأ على سلوك السادات بعد وفاة عبد الناصر، فبعد أن كان يُظهر طوال حياة عبد الناصر ولاءً مطلقاً ومن دون تحفظ لقائد حركة الضباط الأحرار، سارع، بعد أن أصبح رئيساً، ومنذ بدايات تسلمه السلطة، إلى الانقلاب على مجمل تراث سلفه السياسي والاجتماعي. كما سارع بعد توليه السلطة، إلى إعادة الأراضي المصادرة في عهد سلفه إلى كبار المُلاّك السابقين، وإلى فتح المجال أمام تنامي شرائح الأثرياء القدماء

والجدد، وكذلك إلى نقل رسائل إلى الإدارة الأميركية بشأن نياته الودية تجاهها، وهي رسائل تلاحقت إلى أن وصلت في صيف سنة ١٩٧٢ إلى حد تقديم هدية مجانية تمثلت في طرد الخبراء والفنيين السوفيات من مصر بطريقة مهينة. ويورد الكاتب أيضاً كيفية تعامل السادات مع مرحلة ما بعد حرب تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣، والتي شهدت عملياً تسليمه بالمطالب الأميركية التي كانت في مجملها تصبّ في مصلحة الجانب الإسرائيلي. ويروي الكاتب أن وزير الخارجية الفرنسي في تلك الفترة، ميشال جوبير، استخلص "أن المنتصرين الحقيقيين في حرب أكتوبر ليسوا الإسرائيليين ولا العرب وإنما الولايات المتحدة" (ص ٣٥٩).

ويورد الكاتب على لسان عيزر وايزمن، الذي كان ناطقاً باسم حزب الليكود في الحملة الانتخابية التي سبقت انتخابات ربيع سنة ١٩٧٧، قوله له، قبل يومين من الانتخابات التي فاز فيها الليكود، إن حكومة برئاسة مناحم بيغن ستعيد سيناء إلى مصر في مقابل السلام (ص ٣٦٣)، في حين كان الكاتب، في المقابل، قد سمع من زعيم حزب العمل آنذاك شمعون بيرس، قبل أسابيع قليلة من الانتخابات ذاتها، وفي أثناء غداء عمل جمعهما في باريس، أن إسرائيل، ولأسباب أمنية، لن تعيد أبداً إلى مصر النصف المتاخم لها من سيناء (ص ٣٦٤).

ويورد الكاتب أن السادات كان يكرر قبل سنة ١٩٧٧ أن المفاوضات المباشرة مع إسرائيل ستؤدي إلى الاستسلام نظراً إلى موازين القوى، لكن عندما قال له جيمي كارتر، الذي بدأ ولايته الرئاسية في مطلع سنة ١٩٧٧، إن حرية حركته محدودة بسبب معارضة الكونغرس والطائفة اليهودية الأميركية، استخلص السادات أن عليه أن يخاطب الإسرائيليين مباشرة، فغيّر مساره وقرر زيارة إسرائيل (ص ٣٦٨). وفي سياق محاولة تفسير إقدام السادات على زيارة القدس هذه، وإلقاء خطابه في الكنيست في أواخر السنة ذاتها، يقول الكاتب إن السادات ربما كان يعتقد وفق التقاليد السائدة في الريف المصري أن المصالحة مع الخصم تتم من خلال الزيارة المباشرة التي تقود عادة إلى إنهاء الخلاف (ص ٣٧٠).

وبينما حاول السادات أن يصوّر اتفاق كامب ديفيد الموقّع في السنة التالية باعتباره إنجازاً كبيراً سمح باستعادة الأرض المصرية المحتلة، فإن الرأي العام المصري الذي كان لدى بعض قطاعاته بعض الآمال المعلقة على نتائج زيارته للقدس في السنة السابقة، كان قد فقد أوهامه، بحسب الكاتب، وتحوّل إلى موقف مشكك ومعارض لسياسة السادات. وحتى الرئيس الأميركي جيمي كارتر الذي أدى دوراً كبيراً في هندسة اتفاق كامب ديفيد، وحاول أن يوظفه في حينه في حملته الانتخابية لتجديد ولايته في سنة ١٩٨٠ (وهو تجديد لم ينجح في تحقيقه، كما هو معروف)، فينقل عنه الكاتب قوله في مقابلة مع المذيع التلفزيوني الأميركي الشهير تشارلي روز في أيلول / سبتمبر ٢٠١٠، إن اتفاق كامب ديفيد

كان بالنسبة إليه "هزيمة سياسية" (ص ٣٨٠).

وإذا كان جزء كبير من كتاب رولو قد تناول الأحداث المرتبطة بمصر باعتبارها البلد العربي الأكبر والمركزي في أحداث المنطقة والصراع العربي ـ الإسرائيلي، فإن الكاتب تناول أيضاً بعض جوانب الوضع الفلسطيني، فتحدث عن لقاءاته مع القادة الفلسطينيين، وخصوصاً القائدين الراحلين لحركة "فتح" ياسر عرفات وصلاح خلف (أبو إياد)، اللذين التقاهما أول مرة في القاهرة عشية عقد دورة المجلس الوطني في مطلع سنة ١٩٦٩، وهي الدورة التي شهدت تولّي ياسر عرفات لأول مرة رئاسة اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. وجرى هذا اللقاء في إطار عشاء رتّبه سفير الجزائر في القاهرة آنذاك، الأخضر الإبراهيمي، الذي يرسم عنه الكاتب صورة إيجابية، بحضور سفراء عرب آخرين. ويروي الكاتب أن مداخلات أبو إياد في أثناء العشاء تركت لديه انطباعاً أقوى من مداخلات عرفات. وعندما حاول لاحقاً إقناع الرئيس الفلسطيني بإعداد كتاب عنه عبر حوارات معه، وجُبه بالرفض، حوّل مشروعه إلى الرجل الذي كان يُعتبر الثاني بعده، أي أبو إياد، الذي تمكّن معه من إعداد كتابه الشهير "فلسطيني بلا هوية"، والذي صدر في أواخر السبعينيات.

وينقل الكاتب عن أبو إياد روايته للقاء الذي جرى بين عبد الناصر وكل من الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات وأبو إياد نفسه، وذلك في آب / أغسطس ١٩٧٠، بعد موافقة عبد الناصر على مبادرة روجرز، إذ قال عبد الناصر مخاطباً إياهما بشيء من العتاب على الحملة التي شُنّت في بعض الأوساط والمنابر الفلسطينية المنتقدة له لقبوله بالمبادرة الأميركية: "بحسب رأيكم، كم سنة تحتاجون لتدمير الدولة الصهيونية وإقامة دولة موحدة وديمقراطية مكانها في فلسطين المحررة كافة؟!" مضيفاً: "من الأفضل لكم قبول دولة صغيرة في الضفة الغربية وغزة، وذلك سيكون أفضل من لا شيء" (ص ٢٨٥). وقد حاول تفسير قبوله بمبادرة روجرز بحاجته إلى الوقت لإعادة بناء الجيش، باعتبار أن مواجهة جديدة هي مرجحة برأيه.

وفي سياق التوضيح لخلفية حركة الفدائيين الفلسطينيين والجماعة التي أطلقتها بشكل خاص، أي حركة "فتح"، يُنقل عن يهوشفاط هيركابي، الرئيس الأسبق للاستخبارات العسكرية، أنه قرأ كل ما كُتب في مجلة "فلسطيننا"، المنبر الأول لحركة "فتح"، منذ صدورها في سنة ١٩٥٩ حتى توقفها في سنة ١٩٦٤، وأنه لم يجد أي تعبير معاد لليهود (للسامية) فيها (ص ٢٣٨).

وبينما يبدو الكاتب متحفظاً تجاه اتفاق أوسلو، فإنه ينقل عن المفاوض الإسرائيلي الرئيسي في أوسلو، أوري سافير، قوله له، على الأغلب بعد أعوام من الاتفاق: "لقد أنسنّا عرفات بعد أن شيطنّاه، لكن تبيّن أنه مخيب للآمال" (ص ٤٠٩). وفي إشارة إلى النهاية المأسوية للزعيم الفلسطيني، ينقل الكاتب عن كتاب للإسرائيلي أوري دان، بشأن حياة الجنرال أريئيل شارون، كلاماً يؤكد اغتيال عرفات، ويشير إلى

كون شارون قد "حصل في محادثة هاتفية على الموافقة الضمنية للرئيس بوش" (ص ٤١٤).

ومن الإشارات اللافتة للانتباه في الكتاب، وهي إشارات معبّرة عن تناقضات المشروع الصهيوني، تصويره لموقف بن ـ غوريون السلبي من دعوات إقامة دولة علمانية في إسرائيل، إذ ذهب رئيس الحكومة الأول للدولة الصهيونية إلى حد الاشتباك مع "الفيلسوف الأبرز" في إسرائيل، يشيعياهو ليبوفيتس الذي كان يدعو إلى العلمانية على الرغم من كونه متديناً جداً، بينما كان رأي بن ـ غوريون أن "على الدولة أن تمسك الدين بقوة بيديها" (ص ١٠١). فبن ـ غوريون، غير المتدين، يدرك تماماً أهمية الدين لتدعيم الرواية الصهيونية ومشروعها للسيطرة على أرض فلسطين.

ويكرّس الكاتب صفحات أخيرة لشخصية برزت باعتدالها في الحركة الصهيونية هو ناحوم غولدمان، الذي عرفه الكاتب جيداً، والذي شغل فترة من الزمن موقع رئيس المؤتمر اليهودي العالمي. ويذكر أن عبد الناصر كان قد وجّه إلى غولدمان دعوة إلى زيارة مصر ومقابلته، لكن رئيسة الحكومة الإسرائيلية آنذاك غولدا مئير رفضت إعطاء الموافقة عليها وعطّلتها. ويقول الكاتب إن غولدمان كان قد عارض الاستعجال في إعلان دولة إسرائيل في أيار / مايو ١٩٤٨، ودعا إلى التريث حتى تتوافر أجواء عربية أكثر إيجابية أو قبولاً، كما أنه اعترض على حرب ١٩٦٧، وعارض الصفقة المنفردة بين مصر الساداتية وإسرائيل، داعياً إلى حل شامل يقوم على الانسحاب الإسرائيلي من جميع الأراضي المحتلة منذ سنة ١٩٦٧، باستثناء القدس، مع بعض الترتيبات الخاصة بالأماكن الإسلامية المقدسة.

وبين الملاحظات القليلة والثانوية على بعض ما جاء في الكتاب، يمكن الإشارة إلى الكلام الوارد عن أن الرئيس كلينتون، الذي استضاف احتفال ١٩٩٣/٩/١٣ في حديقة البيت الأبيض لتوقيع اتفاق أوسلو، كان يجهل "حتى وجود هذه المفاوضات الثنائية التي دارت في العاصمة النروجية" (ص ٤٠٧)، بينما كانت الإدارة الأميركية في الواقع، على علم دائم بما يجري في هذه القناة السرية منذ بدايتها، سواء من خلال النروجيين أنفسهم الذين رعوا القناة، أو من خلال الإسرائيليين الذين كانوا يبلّغونها أيضاً. لكن من الصحيح القول إن الأميركيين فوجئوا بنجاح هذه القناة التي لم يكونوا يعتقدون أنها ستقود إلى نتيجة بهذه السرعة، وهو ما عبّر عنه وزير الخارجية الأميركي آنذاك وارن كريستوفر، حين جاء وزير الخارجية الإسرائيلي شمعون بيرس لزيارته في كاليفورنيا في أواخر آب / أغسطس ١٩٩٣ كي يبلّغه الاتفاق الذي كان قد تم توقيعه بالأحرف الأولى قبل ذلك بأيام في أوسلو.

يبقى أن نقول إن صحافياً وكاتباً سياسياً بوزن إريك رولو غالباً ما تثير كتاباته الاهتمام نظراً إلى معلوماته الواسعة وخبرته الطويلة ومعرفته الجيدة بأوضاع منطقتنا العربية ومحيطها. لكن يمكن القول إن القارئ المتابع والمهتم ربما كان يتوقع أن

يجد في الكتاب قدراً أكبر من المعلومات الجديدة استناداً إلى ما راكمه الكاتب خلال عمله الطويل في مجالَي الصحافة والدبلوماسية، وبقي خارج مجال النشر (off the record).

ولذلك من المشروع أن نأمل في المستقبل القريب برؤية كتاب آخر يلقي فيه الكاتب أضواء إضافية على أحداث منطقتنا ومحيطها، ولا سيما أنه، على سبيل المثال، كان قد كشف في مقال نشره في شهرية "لوموند دبلوماتيك"، في عدد شباط / فبراير ٢٠١١، عن معلومات مثيرة بشأن القنوات الأميركية للرئيس التونسي السابق، زين العابدين بن علي، الذي كان قد خرج للتو من السلطة في إثر انتصار الثورة التونسية.

داود تلحمي
كاتب وصحافي
فلسطيني

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

دليل إسرائيل العام ٢٠١١

رئيس التحرير

كميل منصور

٨٠٠ صفحة ٢٦ دولاراً